فن الاتصال ودوره في تأسيس الحوار الحضاري

-دراسة في نماذج من الشعر الصوفي النسوي-

د/ ليلى جودي

قسم اللغة العربية وآدابها

ـ جامعة الجزائر 02 ـ

الملخص باللغة العربية:

لا يمكن تخيل الحياة من غير تواصل واتصال، فالاتصال إلى جانب أهميته في التبليغ، هو فن يدل على أجمل مرحلة من مراحل الرقي الحضاري، وأي اتصال يهدف إلى إيصال المقصود بغرض الإخبار والتأثير، حسب السياقات المقامية المختلفة.

أخذ الاتصال بعدا ومكانة في الشعر عموما، وفي الشعر الصوفي خصوصا، الاتصال مع الله هو أعلى وأجل وأنفع وأكرم، وهو ما يجسده الشعر الصوفي، ولهذا أردنا تسليط الضوء على فن الاتصال، ودوره في تأسيس الحوار الحضاري، مقدمين نماذج من الشعر الصوفي النسوي.

RESUME

Le discours soufi :ce travail approche d'une problématique d'un des arts de communication, cet communication qui a fait de quelques poètes femmes soufies se distingeuent un Pont religieux soufi en vers le dieu à travers leurs poèmes puretés du purification au dieu .ce qui fait leur participation remarquable et positive dans le dialogue civisme humain, ces poèmes contient de hauts discours qui atteint le stade de la perfection à travers quelques échantillons poétiques parfaites celon l'analyse du discours

من العقل تستمد الأنسنة، ومن الحوار تستمد القوة، ومن الاستماع يستمد الفهم، ومن القرآن يستمد التشريع، ومن الاتصال بالله تتحقق العبادات والطاعات والمعاملات... وتتحول إلى عمل، على اعتبار أن النفوس على اختلافها ترتاح إلى مخاطبتها بما تكرّم الله به عليها من خطاب أزلي شد العقول بما لا ينافيها، وأخرس الألسنة بما لا يترك مجالا للريبة في أنه كلام الله، إذ من حكمة الله عز وجل أنه خلق الإنسان، ومنّ عليه بالعقل واللسان، وأوجد له القلب وحقق فيه البيان، كما أنزل له القرآن وفرض عليه قراءته والاستماع إليه والإنصات بالجنان، وكانت غايته عبادة الله عبادة خالصة له وحده، للارتقاء به إلى مستوى ما كرّمه به، وفضله على كثير ممن خلق، بترك ما يضره والإقبال على ما ينفعه؛ من أجل أن يحقق إنسانيته، بل بغية أن يعيده إلى فطرته السليمة التي خلق عليها، خاصة بعد أن توترت العلاقات

بين الناس، واختلفوا، وانشقوا، وعمّتهم الفوضى، وساد حبّ الذات نتيجة الشعور بالفراغ في الحياة والتيه في دروبها، فكان لزاما أن تردّ الأمور إلى سابق عهدها، بالعودة إلى خطاب يمثل «حضارة نصية بيانية تقوم على مقاصد الخطاب ومغزاه في عملية الفهم والإفهام». [1] لذلك كان لابد من الاتصال بالله اتصالا يليق بجلاله وعظمته، ويجلي ارتقاء الإيمان والتواصل معه، من منطلق أن الوصل «يفيد معنى الجمع بين طرفين بواسطة أمر مخصوص، فالوصل لا يكون إلا بواصل، والوصل في هذه المرتبة هو الخبر، ثم يأتي الإيصال، وهو نقل الخبر مع اعتبار مصدر الخبر الذي هو المتكلم، ثم الاتصال وهو نقل الخبر مع اعتبار مصدر الخبر الذي هو المتكلم، واعتبار مقصده الذي هو المستمع». [2] وإذا كان بعض الدارسين يعرّفون الاتصال على أنّه كشف ما جاء في مادة الخطاب مهما كان نوعه وعرضها، وأن فيه من الإبلاغ والإعلام والإخبار ما فيه؛ أي نقل خبر من طرف لآخر وإخباره به وإطلاعه عليه، وأنّه يقصد من ورائه إحداث علاقة مع شخص أو شيء ما أو طرف ما، كذلك يشير إلى فعل التوصيل إضافة إلى أنّه يعني التبليغ؛ أي توصيل شيء ما إلى طرف ما وإلى نتيجة ذلك الفعل، ويدلّ أيضا على الشيء الذي يتمّ تبليغه والوسائل التقنية التي بها يتم التواصل، [3] أقول إذا كان الاتصال يقوم بهذه المهمات كلها، فإنّا نراها مهمات يؤديها الاتصال، وليست تحديدا للمفهوم؛ ذلك أنّ الإيصال هو الإبلاغ الذي يشترط وجود بلاغ ومبلِّغ ومبلَّغ، ولا يشترط من هذا الأخير التجاوب سلبا أم إيجابا. في حين يشترط التواصل ما يشترطه الإيصال، إلا أنّه متعلق بوجود تجاوب من المبلَّغ بل يؤكّده، حتى يحقّق وجوده و وجود النص أيضا، وإن كان حرا مخيرا بين قبوله أو التولي عنه، مما ينتج عنه «علاقة حوارية حرة بين فئات المجتمع المتعددة والمتباينة إيديولوجيا وطبقيا، علاقة تتوخى بناء وعي بمنأى عن ضغط المؤسسات والأجهزة». [4] والمهم في كل هذا أن ذكر الله في النفس والقلب وبكل الجوارح في كل مكان وزمان وبمختلف الأعمال والأقوال التي أمر بها الله هو الايصال وحسبنا أنك إذا ذكرتَه فأنتَ تخاطبُه. [5]

ومن هنا جاءت طائفة من الناس أناخت على باب الله عز وجل، راجية رحمته وعفوه وكرمه، بل أن تصل إلى حبه بعد أن أخلصت في حبها له. نعم! لقد أقبلت رابعة العدوية وأخواتها المتصوفات وهن يلهجن بدعاء مفاده "إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي". وأدركن أن الاتصال فن لا يتقنه إلا من امتلك حكمة عظيمة أساسها العلم والعقل وقبلهما القلب، فقالت رابعة وقد توجهت إلى ربها وحده لذاته بعبارات لا تحمل خوفا من النار ولا طمعا في الجنة [6]:

أحبك حبين: حب الهوى * وحبا لأنك أهل لذاكا**

فأما الذي هو حب الهوى * فشغلي بذكرك عمن سواكا**

وأما الذي أنت أهل له * فكشفك لي الحجب حتى أراكا**

فما الحمد في ذا ولا ذاك لي * ولكن لك الحمد في ذا وذاكا**

كما قالت إحداهن وهي تحفة وقد هامت في حب الله بلحن حنون:

معشر الناس ما جننت ولكن* أنا سكرانة وقلبي صاح**

أغللتم يدى ولم آت ذنباً * غير جهدي في حبه وافتضاحى**

أنا مفتونة بحب حبيب * لست أبغى عن بابه من براح**

ماعلى من أحب مولى الموالي* وارتضاه لنفسه من جناح**

وقالت حيونة خادمة الله، عندما لامها الخلق على الحال التي آلت إليها، نحافة واسودادا، من كثرة صيامها وطاعاتها، فآلت على نفسها أن تظل في خدمة الله حتى لا يبقى لها عصب ولا قصب:

يا ذا الذى وعد الرضا لحبيبه * أنت الذى ما إن سواك أريد**

وفي ذات السياق قالت عائشة الباعونية الدمشقية، وهي التي جمعت بين العلم والشعر والصلاح والدين والزهد:

حبيبي أنت من قلبي قريب * وعن سرّي جمالك لا يغيب**

خلعت الحسن في خلع التجلي * فشاهدت الجمال ولا رقيب**

وأبدت الوصال فلا صدود * ولا وهم ولا شيء يريب**

إذا هي نفحات حب وشوق لملاقاة الله في الدنيا والآخرة، تتصاعد رافلة في جو فني بديع، لا ينتهي بانتهاء النص أو كلماته أو حروفه، إنه ببساطة يمثل خلاصهن، "فالمخلوق يحن إلى خالقه بضرورة وجوده، لا يجد محبوبا أسمى من الله، ولا غنى إلا به، ولا جمالا إلا في التشوق إليه". [7]

نعم. إنها طائفة من شاعرات الحب الإلهي، تلذذن بمناجاة الله في انتشاء دال على عظم حبهن لعظيم فروا إليه، وكلهن شوق ولهفة لمخاطبته، فهو المنطلق والمنتهى، وهو الأول والأخر، ينقطعن إليه وحده دون سواه، حياءهن نزع بقلوبهن إلى دوام الحضور مع حبيبهن، فهن يؤثرن طاعته للدلالة على محبته، فلازمن دين الله وقرآنه وسنته، وأحببن الخلوة والوحدة في صدق وصفاء وحسن وفاء وحمل الأذى، فنلن بذلك الدرجة الرفيعة، على اعتبار أن "التصوّف هو كلّ عاطفة صادقة، متينةِ الأواصر، قوية الأصول، لا يساورها ضعف، ولا يطمع فيها ارتياب" [8].

ولئن كان التصوف "ذكر مع اجتماع، ووجْد مع استماع، وعمل مع اتباع" [9]، فإنه حق لنا أنا نقول أن الاتصال هو أعلى درجات المقاصد لديهن في حياتهن الدنيوية، فهو إذا بلغَ مرتبة الإحسان أصبح اتصالهن اتصال وجود، امتثالا لما جاء في الحديث القدسي قوله تعالى: "ابن آدم اُطلبني تجِدْني، فإذا وجدْتني وجدْتَ كلّ شيء، وإذا فتُكَ فاتكَ كلّ شيءٍ، وأنا أحبّ إليك من كلّ شيء"، على أساس أن الله يحب أن يقبل العبد عليه بكل جوارحه بإخلاص واستقامة، ويسمعه صوته بكل وله واشتياق، فيقذف الله في قلبه نوراً يريه الحق حقاً والباطل باطلاً والخير خيرا والشر شرا.. وإذا علت المرتبة أكثر ارتقى إلى اتصال الشهود، وهو اتصال الحال والمعرفة، فالحياة الحقيقية حياة القلب، المتصل دوما وأبدا بالله مصداقا لقوله صلى الله عليه وسلم عن أنس بن مالك: "ثَلَاثٌ مَنْ كُنّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ

يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبّ إِلَيْهِ مِمّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النّارِ. [متفق عليه]

ونحن هنا نجمع بين «الحوار المتبادل في مظهره العقلاني، المقرون بسياق لغوي تداولي، يعتمد البرهان وأسلوب المحاججة»، [10] وبين الاتصال لما لهما من مزية كبيرة في تحقيق فاعلية الخطاب، فهذه حيونة تقول: "**من أحب الله أنس، ومن أنس طرب، ومن طرب اشتاق، ومن اشتاق وَلِه، ومن وله خرُم، ومن خرم وصل، ومن وصل اتصل، ومن اتصل عرف، ومن عرف قرب، ومن قرب لم يرتد وتسوّرت عليه بوارق الأحزان**" [11]، فالمحبة هي اشتغال القلب بالمحبوب، ومعها يأتي الأنس بذكر الله، وهي بالمقابل نقيض الوحشة، وحضور أحدهما يعني غياب الآخر، وبالمحبة تتحقق بالمعرفة، إذا هي سلسلة تمتد حلقاتها لتحدث الاتصال خاصة إذا علمنا أن: "المعرفة بالله تورث المحبة له، والمحبة لله تورث الشوق إليه، والشوق إليه يورث الأنس به".

إذا هي نفحات صادقة دالة على فنون الاتصال وأشكاله، حيث أوضحت هذه المقولة الراقية أن الاتصال هو العملية التي يتم من خلالها نقل رسالة معينة أو مجموعة من الرسائل من مرسل أو مصدر معين إلى مستقبل، والرسالة هنا تحمل حبا تأنس له النفوس، وتطرب شوقا وولها يقرب من الله، ومن ثمة تتحقق المعرفة الحقة، هكذا استطاعت حيونة وقريناتها نقل طاعاتها وعواطفها نقلا متأججا أمينا، باعتبار أن الاتصال هو نقل أو انتقال للمعلومات والأفكار والاتجاهات أو العواطف من طرف لآخر. وهو أيضا عملية تفاعل تحدد الوسائل والهدف الذي يتصل أو يرتبط بالآخرين، ويكون من الضروري عدّه تطبيقا لثلاثة عناصر أساسية هي العملية والوسيلة والهدف.

إنّ المطلع على شعر بعض المتصوفات سيجده يطرح قضية التعامل معه سمعا، وإنصاتا، وبصرا وبصيرة، وعقلا وقلبا... تفعيلا للاتصال الجاد، وقد كانت رابعة العدوية أول من قصّد قصيد التصوّف، إذ نجد لها قصائد وأبيات حوت من السمات الراقية ما أهلها أن تتبوأ منزلة عالية فاقت قريناتها من النساء من أمثال حيونة وتحفة وعائشة الباعونية... ونافست أقرانها من الرجال ممن ذاع صيتهم وانتشر بعدها من أمثال السري السقطي وجلال الدين الرومي وسهل التستري... وغيرهم كثير. وقد أيقنت جميعهن أن الاتصال هو أس وجود العبد وعبوديته، يقين اقتضى الاتصال بالله عز وجل في كل وقت وحين وفي كل مكان اتصالا حسنا يليق بجلاله وحده، ويوطد العلاقة به؛ لتنتقلن إلى منزلة أرقى، تسمهن ربانيات في ظل تغييب الغفلة واستحضار القلب السليم، لا لشيء إلا لأنهن فقهن قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ**﴾ فاطر15، فانشغلن عن الدنيا ومتاعها بما فُرض عليهن من طاعات وعبادات لمعرفة الله والاتصال به لتطبيق أوامره، ومن ثمة الاعتصام بحبل الله المتين، وكلهن توكل على الله وإنابة وورع.. وكم تألمن لانشغال قلوب الناس بحب الدنيا عن الله تعالى، تقول رابعة العدوية:

لكلِّ شيءٍ عدمتُهُ خَلَفٌ ***وما لفقْدِ الحبيبِ مِنْ خَلَفْ

وتقول:

تنادمني وتسقيني مدامي * ويحضرني لديك فلا أغيب**

وتذكرني وتشهدني جمالاً * تقدّس أن يكون له ضريب**

فلا خوف وأنت أمان قلبي * ولا سقم وأنت لي الطبيب**

ولا حزن وأنت سرور سرّي * ولا سؤال وأنت لي الحبيب**

وبهذا فهن يرتقين من منزلة إلى أخرى دلالة على تشرب قلوبهن الإسلام، الذي سرعان ما ارتقى إلى درجة الإيمان فالإحسان، ويكفينا بيانا قول رابعة بنت سليمان الشامية [1] [2]:

حبيبي ليس يعدله حبيب * ولا لسواه في قلبي نصيب**

حبيب غاب عن بصري وسمعي * ولكن في فؤادي ما يغيب**

والحق أن القصيدة الصوفية هدفها الرئيس تمجيد الذات الإلهية أو مدح الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لذلك انشغلت الشاعرات الصوفيات بإنزال الله في خطابهن منزلة حسىة، وأيقن أنه يُحِبُّ ويُحَبُّ، بل واجب حبه، فأفضين إلىه بمكنوناتهن، ووقفن عند أعتابه عساهن يلقين ردا بالقبول، فقد قالت رابعة العدوية أرقى ما باحت به النفس البشرية:

أحبك حبين حب الهوى * وحبا لأنك أهل لذاك**

فأما الذي هو حب الهوى * فحب شغلت به عمن سواك**

وأما الذي أنت أهل له * فكشفك لي الحجب حتى أراك**

فما الحمد في ذا ولا ذاك لي * ولكن لك الحمد في ذا وذاك**

هذه الأبيات وإن أعملت رابعة قلبها بشدة، إلا أن عقلها كان حاضرا بقوة ،عندما وعت أن حب الله جاء نتيجة لإحسانه إليها وتكرّمه عليها بجزيل النعم، وقد تمكنت من الفصل بين نوعين من الحب: هو هذا الحب الذي ذكر الآن، وهو حب الهوى الذي شغلها بذكر الله تعالى عمن سواه، وحب آخر يليق بجلاله وعظمته، وقد استقر بها المقام عند مقام حب الله بما هو أهل له، وذلك حين انكشفت عنها الحجب لترى جمال الله الأزلي.

وغير بعيدة عنها نجد تحفة المتصوفة التي حلّقت في سماء المنتشين بحب الله في أسمى مقامات الرقي الروحي، حيث تحضر النفس المطمئنة السعيدة بحبيبها الذي ملأ جوانحها، وملك كل جوارحها، وقد قالت:

وحقك لا نقضت الدهر عهداً * ولا كدرت بعد الصفو ودا**

ملأت جوانحى والقلب وجداً * فكيف أقر يا سكنى وأهدأ**

فيا من ليس مولى سواه * نراك رضيتنى بالباب عبدا**

وقد حققت هذه الأشعار خصوصيتها المتفردة، التي تجلت أكثر ما تجلت في تلك التجربة الباطنية الصادقة، التي أفصحت عن الشعور بألم المعاناة، ورسمته كلمات خالدة، بعد أن جالت في مناطق قصية من النفس البشرية السوية، لتكتشف المجهول برؤى تغوص في الأعماق. وبهذه الصورة تتمظهر أرقى الوسائل التي يتوازن بها الاتصال ويكتمل ليتحول إلى تواصل مكتف بنفسه؛ ذلك أنّ «كلّ تواصل لغوي يقوم بناء على شكل من أشكال الحوار». [13]

ثم إنّ الذي يتمعن في بعض أبياتهن الشعرية يجدها قد مثلت جوهر الإنسان، وممّا يؤكّد هذا الحب الذي هو نعمة ملازمة للروح، وجوهر العبادة، وسر الوجود، وهو ما رسمته الشاعرة رابعة الشامية التي قالت فأطربت القلوب عشقا لمولى واحد أحد [14]:

يا حبيب القلب يا كل المنى * جد بوصل منك يشفي مهجتي**
يا سروري وحياتي دائما * نشأتي منك وأيضا نشوتي**
قد هجرت الخلق جمعا أرتجي * منك وصلا فهو اقصي منيتي**
وزادي قليل ما أراه مُبلّغي* أللزاد أبكي أم لطول مسافتي**
أتحرقُني بالنار يا غاية المنى* فأين رجائي فيك أين مخافتي**

حيث ذكرت جملة من الثنائيات الضدية مثل الهجر والوصل .. إذ خصت كافة الخلق بالهجر وأفردت الوصل لله وحده دون سواه كما كررت بعض الكلمات كالمنى التي تكررت لفظا ومعنى وبصيغ مختلفة، ليس عجزا منها وتقصيرا، وإنما لانشغالها بمناجاته ونيل رضاه، عن التلاعب بالكلمات والعبارات، وفي هذا إشارة صريحة إلى أنّها تمثل شيئا واحدا "الوصال". فهذا هو همها وهذه هي غايتها، وهي هنا غير بعيدة عن الذي باحت به رابعة العدوية عندما قالت:

يا حبيب القلب ما لي سواك * فارحم اليوم مذنبا قد أتاك**
يا رجائي وراحتي وسروري * قد أبى القلب أن يحب سواك**

وقالت كذلك:

فليتك تحلو والحياة مريرة وليتك ترضي والأنام غضاب
وليت الذي بيني وبينك عامر * وبيني وبين العالمين خراب**
إذا صح منك الود فالكل هين * وكل الذي فوق التراب تراب**

فهذه الشاعرة كما غيرها من الشاعرات المتصوفات وظفن لغة تعبيرية وصّفت حالاتهن المتابينة، التي تراوحت بين الحضور والغياب، وبين الاتصال والانفصال، وبين الصحو والسكر، فهن دوما في تنقل بين عالمي الشهادة والغيب، خوفهن من الله يقبضهن، ورجاءهن منه يسرهن، كما ذهب إلى ذلك السلف من المتصوفة.

إذ كلما اتسعت الرؤى، ضاقت العبارة عندهن، بوصف التجربة الروحية أعمق من التجربة الشعرية، فرمزىة الخمر فيها دلالة على كثرة الشرب من كأس المحبة، وما ارتوين رغم سكرهن، وعلى هذا الأساس، وفر الرمز والحب الإلهي للمتصوفة استرتىجىة تواصلىة لا تهدف إلى الكشف بقدر ما تهدف إلى الحجب، وهذا ما نجده عند رابعة العدوية في قولها:

وأما الذي أنت أهل له * فكشفك لي الحجب حتى أراك**

إن تحقيق الاتصال فن يدل على أجمل مرحلة من مراحل الرقي الحضاري، حينما يتواصل البشر مع ذواتهم أولا، ثم مع غيرهم ممن يحمل ذات الانشغال، ثم قبلها وأثناءها وبعدها، أعني بهذا في كل حركة وسكنة، مع المولى رب السموات والأراضين، وبخاصة إذا علمنا بأن الاتصال مع الله هو أعلى وأجل وأنفع وأكرم.

إنّ مفهوم الاتصال مع الله ليس مجرد صوت ينقل، وصورة حركية تنجز، وإنّما يحيل إلى أعمال ملموسة، وقلوب مخلصة، تكون زادا كافيا طيلة المسير في الدنيا الزائلة، ولا يتأتى هذا إلا إذا تم إعمال القلب خاصة بالنسبة إليهن، فهو «مركز الإيمان ومحل الكفر»، [15] حيث احتكم القرآن إليه لتأكيد حقيقة الخطاب من خلال الدور الذي أسند إليه، فحث القلب على التبصر والنظر والتدبر، على اعتبار أن البصيرة قوة للقلب المستنير بنور القدس، يرى فيها حقائق الأشياء وبواطنها بمنزلة البصر للنفس، ويرى به صور الأشياء وظواهرها، وهي التي يسميها الحكماء العاقلة النظرية والقوة القدسية؛ [16] إذ تزداد بصيرة القلب كلّما أعمل الإنسان عقله، ليدرك فاسد الأشياء من صالحها، وعاش يتأمل الكون ويتفكر، ويذكر الله قائما وقاعدا وراقدا على جنبه، فالقلب من منظورهن حياة الإنسان؛ لأنّه بإمكان الإنسان أن يستغني عن السمع والبصر، ولكنّه يستحيل عليه التخلي عن عقله أو قلبه، حيث إنّه إذا فقد عقله سقط عنه التكليف، وإذا حرم قلبه قطع عنه التواصل وأقفل، كما جاء في قوله سبحانه وتعالى: ﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾ سورة محمد ـ الآية 24، لذلك كان لصوت العقل والقلب قدرة خارقة على ولوج عالم الخطاب فقلن:

معشر الناس ما جننت ولكن*أنا سكرانة وقلبى صاحى**
ملأت جوانحى والقلب وجداً * فكيف أقر يا سكنى وأهدأ** [17]

حبيبي أنت من قلبي قريب * وعن سرّي جمالك لا يغيب**
فلا خوف وأنت أمان قلبي * ولا سقم وأنت لي الطبيب**
حبيبي ليس يعدله حبيب * ولا لسواه في قلبي نصيب**
حبيب غاب عن بصري وسمعي * ولكن في فؤادي ما يغيب** [18]

إني جعلتك في الفؤاد محدثي * وأبحت جسمي من أراد جلوسي**
فالجسم مني للجليس مؤانس * وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسي [19]**

يقول ابن القيم: "ففي القلب شعث، لا يلمه إلا الإقبال على الله. وفيه وحشة، لا يزيلها إلا الأنس به في خلوته. وفيه حزن لا يذهبه إلا السرور بمعرفته وصدق معاملته. وفيه قلق لا يسكنه إلا الاجتماع عليه، والفرار منه إليه، وفيه نيران حسرات: لا يطفئها إلا الرضا بأمره ونهيه وقضائه، ومعانقة الصبر على ذلك إلى وقت لقائه. وفيه طلب شديد: لا يقف دون أن يكون هو وحده مطلوبه، وفيه فاقة: لا يسدها إلا محبته، والإنابة إليه، ودوام ذكره، وصدق الإخلاص له. ولو أعطي الدنيا وما فيها لم تسد تلك الفاقة منه أبدا" [20].

ولئن جعل الله سبحانه من القلب محلاً لعبوديته، فإن رابعة العدوية وزميلاتها في التصوف أتين طائعات وجعلن قلبهن حاضرا حيا، لا يجد راحته إلا عندما يتصل بربه حبا واشتياقا وخوفا ورجاء ومحبة وتوبة وصبرا وأنسا ورضا وطمأنينة، لذلك قلما كن يهجعن هجعة خفيفة، وقد قضين الليل كله في صلاة وذكر.. وكن يصمن إلى حد الهزال والاسوداد.. وبالجملة كن يتقربن إلى الله بما فرض عليهن، ويردفنه بالنوافل، وفي هذا يقول ابن القيم: "دخلت على الله من أبواب الطاعات كلها، فما دخلت من باب إلا رأيت عليه الزحام، فلم أتمكن من الدخول حتى جئت باب الذل والافتقار، فإذا هو أقرب باب إليه، وأوسعه ولا مزاحم فيه ولا معوق، فما أن وضعت قدمي على عتبته، فإذا هو سبحانه أخذ بيدي وأدخلني عليه".

وإذا كان القلب هو وعاء الرسالة السماوية؛ فإنه يعني أنّه أُعطي من الثروة العلمية الربانية ما يفوق علم البشر؛ ألا وهو كتاب الله، [21] الذي يقول فيه: ﴿**وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ**﴾ سورة التكوير ـ الآية 23، والأفق المبين، تفسيرا، مطلع الشمس من قبل المشرق، وقيل: أقطار السماء ونواحيها. أما تأويلا؛ فهو نهاية مقام القلب. [22]

ولئن كان القلب يسهم في إيجاد صيغة للتفاعل والتعامل الحضاري الراقي، فإنّ هذه الآلية الحسية قد تصاب بالفساد. ونحن هنا لا نعني إصابة هذا الجهاز على المستوى الفيزيولوجي وتعطله، ولكنّ الأمر متعلق بالطبع على القلوب وإقفالها من قبل الإنسان نفسه، فلا يقبل تلقي الرسالة، ويعمل على تعطيل جهازه، الذي منّ الله به عليه في نسق فريد دقيق يجعل منه إنسانا بحق، فهو ممن يسارعون في الكفر بعد أن اضطربت نفسه، وضاق صدره، ونفر من صوت الحق جحودا ونكرانا، فهو يتخذ كلّ هذه الصفات ومثيلاتها، عدا أن يكون إنسانا؛ لأنّه غلّق على قلبه فكان من الغافلين الخالدين في جهنم، وهو الشيء الذي جعلهن يتألمن من انشغال قلوب الناس بحب الدنيا عن الله تعالى من ذلك قول رابعة العدوية:

لكل شيء عدمته خلف * وما لفقد الحبيب من خلف**

تعصي الإلـه وأنت تظهر حبه* هذا محال في القياس بديـع**

لو كان حبك صادقـاً لأطعتـه * إن المحب لمن يحب مطيـع**

في كل يومٍ يبتديـك بنعمـةٍ * منه وأنت لشكر ذاك مضيع**

وفي المقابل نجد إنسانا سويا، يؤمن بأنّ كلّ ما في الكون سُخِّر له بما فيه هذا الجهاز، إذ سبحانه ما خلقه باطلا، لقد سمع نداء ربّ العالمين، فكان من الذين يسارعون إلى الإيمان، بعد أن اطمأن قلبه وانشرح صدره، وبهذا كان إنسانا عاقلا حساسا، أعمل كل جزئية فيه قبل أن تشهد عليه، وكانت له عقبى الدار، فهذه الحالات التي تنتاب الإنسان صورتها الشاعرات المتصوفات تصويرا دقيقا بارعا حين قالت رابعة الشامية:

إني جعلتك في الفؤاد محدثي * وأبحت جسمي من أراد جلوسي**

فالجسم مني للجليس مؤانس * وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسي**

ومن جميل ما قالته رابعة العدوية:

لم أجد لي عن هواه عوضا * وهواه في البرايا محنتي**

حيثما كنت أشاهد حسنه * فهو محرابي إليه قبلتي**

إن أمت وجداً وما ثم رضا* واعَنَائي في الورى أوشقوَتي**

كذلك آثرت ريحانة الصوفية الحياة الأخرى على الحياة الدنيا فقالت:

حسب المحب من الحبيب بعلمه * إن المحبّ ببابه مطروح**

والقلب فيه أن تنفس في الدجى * بسهام لوعات الهوى مجروح**

وقالت تحفة تتحرق شوقا لملاقاة الله:

محب الله في الدنيا سقيم * تطاول سقمه فدواه داه**

سقاه في محبته بكأس * فأرواه المهيمن اذ سقاه**

فهام بحبه وسما اليه * فليس يريد محبوبا سواه**

كذلك من ادعى شوقا إليه * يهيم بحبه حتي يراه**

ومن هذا المنطلق عدّ الاتصال بالله المحرّك الأمثل للقلوب المتعلقة بذكر الله والنفوس المطمئنة في ظل حضور التواضع والخنوع والإذلال أمام الواحد القهار من دون قسر أو إكراه.

بحثت رابعة العدوية عن محبة خالدة فلم تجدها إلا في الله والاتصال به مجسدة الحب للحب وقد أسست أركانه ودعت إليه فقالت:

يا سروري ومنيتي وعمـادي * وأنيـسـي وعـدتـي ومــرادي**

أنت روح الفؤاد أنت رجائـي * أنت لي مؤنس وشوقك زادي**

أنت لولاك يا حياتي وأنســي * مـا تـشـتت في فـسـيـح البـلاد**

كم بدت منةٌ، وكم لك عنـدي * مـن عـطـاء ونـعـمـة وأيـادي**

حبـك الآن بغيتـي ونعيـمــي * وجـلاء لعيـن قلبــي الصـادي**

إن تكـن راضيـاً عنـي فإننــي* يا منـى القلب قد بـدا إسعـادي**

وناجت تحفة ربها قبيل الفجر فقالت:

قد تصبرت إلى أن * عيل من حبك صبري**

ضاق من غلي وقيدي* وامتهاني فيك صدري**

ليس يخفى عنك أمري * يا منى قلبي وذخري**

أنت قد تعتق رقي * وتفك اليوم أسري**

وقالت حيونة وهي ترفع طرفها إلى السماء:

يا ذا الذي وعد الرضا لحبيبه ***أنت الذي ما إن سواك أريد

وقد جاءت هذه الأبيات في مناجاة حوارية داخلية استلزمت موقفا خطابيا نموذجيا، ذا بنية لغوية متناسقة، أهلتهن لبسط حبهن والبوح به، وقد شكلت بالنسبة إليهن اللبنة الأولى للاتصال الصحيح؛ لأنّه يلعب دورا مركزيا في بلورة العملية التواصلية، وإبراز قدرة الإنسان على التأثر والتأثير في المتلقين وكسبهم، «فبقدر ما يصل المتحاورون إلى الاتفاق يمكن للحوارات عندئذ أن تتواصل وتقترب من الحقيقة، إذ يتخطى الحوار الحقيقي الذاتانية والرأي الذاتي للمشاركين. فاللوغوس لا يمكن أن يكون ملكك أو ملكي، بل يبقى مشتركا بين ذاتية المتحاورين، ورهينا بالتذاوت ـ Intersubjectivité، وهو ما يجعل للحوار فاعلية كبرى، تمكّن كلّ متحاور أن يصل إلى رؤية الحقيقة ومن موقعه الخاص به». [23] وهو ما أفصحت عنه الشاعرة عندما قالت:

معشر الناس ما جننت ولكن*أنا سكرانة وقلبى صاحى**

لم غللتم يدى ولم آت ذنباً * غير هتكى فى حبه وافتضاحى**

أنا مفتونة بحب حبيب * لست أبغى عن بابه من براح**

إذا فلهذا النوع من الشعر مزاجه الخاص في التواصل، خاصة حينا يصل إلى أطراف أخرى عن طريق الحوار والجدال والحجاج، بالرّد على المخاطِبين المخاطَبين ومسايرتهم، وهو الأمر الذي عرف عند بعض الدارسين بـ"العقلانية التواصلية" التي تسعى إلى ضبط علاقة الفرد بالآخر، ضمن إطار أخلاقيات المناقشة والحوار القائم على المساواة، وهي في الوقت ذاته تكفل شروط التفاعل السليم والحوار المتبادل... وتحدد الشروط السليمة والكفيلة بامتحان مصداقية ومعيارية أي خطاب يدّعي لنفسه الصلاحية على ما عداه من الخطابات. [24] «لأن الناس إنّما يكلم بعضهم بعضا ليعرف السامع غرض المتكلم ومقصوده». [25] ونضيف الى هذا أن فنون التفاعل هي «جوهرة العلاقات الإنسانية، التي تضع المتلقي وسط المجال ليتفاعل مع الرسالة، ويشارك في صناعة القرار». [26]

راحتي يا إخوتي في خلوتي * وحبيبي دائما في حضرتي**

فتتم الاستجابة من قبل الذين يسمعون الكلام، ويبصرون آيات الله، ويتدبرونها بقلوبهم، ويتفكرون فيها بعقولهم، يستعينون بالمدخل الأس الذي زوّدهم الله به، القلب، الذي يمثل نسقا متكاملا يشكّل الأداة التواصلية التي تبحث عن جمالية تهادن القلب، وتضبط النفس، وتحرّك الحواس ليكون أليق بهذه المناجاة الربانية، فليس عبثا أن يذكّرنا الله تعالى بالقلب ومكانته، وضرورته، ونفعه، وقيمته؛ لأنّ النفس تزداد خشوعا بالذكر الذي دعا إليه الله، فكانت هذه المناجاة وهذه الأبيات أكثر وقعا وإيصالا، حيث إنّ قوتها لا تكاد تظهر ولا تصل مداها إلا بحضور المخاطب المتواصل.

لقد ذاقت الشاعرات المتصوفات حلاوة القرب من الله بالدعاء، واستلذذن ببراعة الرجاء وأَلِفن سمع جميل المنى، فاستقام في قلبهن هواه، وتهيّأن ليرين رحمته وقد أنخن على بابه، كذلك فإن دورانها في اللسان وقد لاكت كلمات العفو والرضا جعلها تغبّ* في القلب وتختمر في الصدر، [27] فهمن وسكرن بحبه، وصحين على وصله، والبقاء به، ولا أدل على ذلك من قول تحفة:

معشر الناس ما جننت ولكن*أنا سكرانة وقلبى صاحى**

وقول رابعة العدوية:

يا طيب القلب يا كل المنى * جد بوصـــل منك يشفي مهجتي**

قد هجرت الخلق جمعا أرتجي* منك وصلا فهو أقصى نشوتي**

ويضاف إلى كل هذا أحلى وأرق بل وأوعى ما ذكرته ميمونة، وهي تعرض التجربة الروحانية الوجدانية التي يعيشها السالك المسافر إلى ملكوت الحضرة الإلهية والذات الربانية، من أجل اللقاء بها وصالا وعشقا، بل تحلية وتخلية وتجل، إنها ببساطة تشيد بالعارفين السالكين الذين يحبون الله، ويسلكون في تجلدهم الروحاني مقامات وأحوالا من أجل الاتحاد بالله ومعانقته، والاتصال بجبروته وقدسيته النوارنية بقلوب مبصرة وعيون ترى ما لا يراه الناظرون، وهم يطيرون في الملكوت بأجنحة لا ريش لها، وكل هذا كناية عن حال الوجد والانخطاف التي يعيشونها تقول:

قلوب العارفين لها عيون * تري مالا يري للناظرينا**

وألسنة بأسرار تناجي * تغيب عن الكرام الكاتبينا**

وأجنحة تطير بغير ريش * إلي ملكوت رب العالمينا**

ترتع في رياض القدس طرا ***وتشرب من بحار العارفينا

لهم لهج بذكر الله دوما * فلا تلقاهم إلا ذاكرينا**

تراهم تاركين لكل شغل * إلي داعيهم متسابقينا**

فغابوا عن نفوسهم وعنهم * وعن زوجاتهم وعن البنينا**

عباد أخلصوا لله حتي * دنوا منه وصاروا واصلينا**

ومن هنا حقق الاتصال جدواه، لذلك كان شأنه أرفع، ونفعه أجدى، وبالتالي فقد جعل الله الاتصال به خصيصة ملازمة للقلب والعمل محققة لرحمة الله، وجعل كلا من الدعاء والرجاء يحظيان فيه بأوفر نصيب لتأكيد الاتصال وتثبيته.

إذا فالباعث إلى الاتصال بالله يهدف إلى زيادة الإحساس بعظمة الله والقرب منه أكثر فاكثر، في صوت ينصهر مع كل ترغيب وكل ترهيب، ليتحول إلى كلمات تنبض بالحياة، وتستحيل كلّ كلمة إلى روح متأصلة، خاصة وأنّ كلّ توسل وتعلق بالمولى تعالى يمثل عنصرا مهما في فاعلية اللقاء والارتقاء في معارج المتصوفات، بوصفها تتضمن ضروبا من الدلالات التي تمنح شعر المتصوفات ثراء جماليا متجددا، ﴿**إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ**﴾ فاطر ـ الآية 10.

والصحيح أن هذا النوع من الكلم الطيب جعل من عبادة رابعة تتجاوز مرحلة الخوف من النار والفوز بالجنة إلى مرحلة أسمى هي حب الله بعيدا عن الطمع فهي لا ترضى عنه بديلا، تقول:

كلهم ىعبدونك من خوف نار * ويرون النجاة حظا جزىلا**

أو بأن ىسكنوا الجنان فىحظوا * بقصور وىشربوا سلسبىلا**

لىس لي في الجنان والنار حظٌ * أنا لا أبتغي بحبي بدىلا**

وفي ضوء هذا التذوق الجمالي لبعض شعر الحب الإلهي لدى بعض المتصوفات بعد الاطلاع على بعض الأبيات يمكننا القول: إنّ الاتصال هو بمنزلة اللبنة الأساسية التي تستقر عليها المعاني في النفس، إذ إنّ نجاح إعمال القلب متوقف على مدى قدرة الشعر الصوفي على تحريك المخاطَب، وتفعيل مقدرته الحسية، ثم العمل به، وعليه فقد عدّ الاتصال ظاهرة لها جمهور يتّسع لكل من يتصل بالله، فيعمل على تكوين أناس أو يعيد تكوينهم، أي تقويمهم وتغييرهم على نحو سليم، نام، يمنحهم درجات من الرقي الفكري والسمو الروحي، فيحيي نفوسهم معنويا، وينمي شعورهم بالجمال العام الذي يحيط بهم، ويهذبهم إن على مستوى حب الله وإن على مستوى النفس أو الآفاق لقول رابعة العدوية:

عرفت الهوى مذ عرفت هواك* وأغلقت قلبي عمن سواك**

وكنت أناجيك يا من ترى* خفايا القلوب ولسنا نراك**

أحبك حبين حب الهوى * وحبا لأنك أهل لذاك**

فأما الذي هو حب الهوى* فشغلي بذكرك عمن سواك**

وأما الذي أنت أهل له * فكشفك للحجب حتى أراك**

فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي * ولكن لك الحمد في ذا وذاك**

أحبك حبين.. حب الهوى * وحبا لأنك أهل لذاك**

وأشتاق شوقين.. شوق النوى * وشوق لقرب الخلي من حماك**

فأما الذي هو شوق النوى * فمسري الدموع لطول نواك**

أمـــا اشتيـــاق لقـــرب الحمـــى فـ * نـــار حيـــاة خبت فـــي ضيـــاك**

ولست على الشجو أشكو الهوى * رضيت بما شئت لـي فـي هداكـا**

وقول عائشة الباعونية الدمشقية:

حبيبي أنت من قلبي قريب * وعن سري جمالك لا يغيب**

خلعت الحسن في خلع التجلي * فشاهدت الجمال ولا رقيب**

وأبدت الوصال فلا صدود * ولا وهم ولا شيء يريب**

وطفت علي في حان التصابي * بكأس عيش شاربه يطيب**

براح نلت أقصى الري منه * وفي زي تراءت لي الغيوب**

وزالت باستوا شمسي ظلالي * تجل ليس يعقبه غروب**

وصرت إلى مقام ليس فيه * سواك حبيب قلبي له نصيب**

تنادمني، وتسقيني مدامي * ويحضرني لديك فلا أغيب**

وتذكرني، وتشهدني جمالاً * تقدس أن يكون له ضريب**

فلا خوف وأنت أمان قلبي * ولا سقم وأنت لي الطبيب**

ولا حزن وأنت سرور سري * ولا سؤل وأنت لي الحبيب**

ونحن هنا إذ نورد هذه الأبيات على طولها فلنوضح أن المتكلم إذا اندفع في الكلام مخبرا لزم أن يكون قصده إفادته المخاطب، [28] ويكون بهذا قد أعطى العقول مستوى أرفع عن طريق القلب المستبصر، لنؤكد أن شعر المتصوفات بناء حضاري غير محدود الزمان أو المكان؛ ما يعني أنهن قدوة سعين إلى تعليم الناس كيفية الاتصال برب الناس.

ولئن كان الاتصال أمرا من الله ملزم القارئ بالامتثال لأوامره ونواهيه، فهذا لأن غايته التأثر الـذي هـو تبديل في المنحى وتغيير في السلوك وتحريك للنفوس وتقويم للفكر، وبخاصة أن فن الاتصال واحـد مـن أهم الإشكاليات الحضارية التي تواجه صيرورة الوجود الإنساني، وقد طرحتها الشاعرات المتصوفات في أسلوب هو في حقيقته موجّه إلى جهة القصد الذي لا يخلو من المعنى والدلالـة والحقيقـة، الـتي تكتسـي بعدا جماليا خطيرا، وهو أمر يسعى المتلقي دوما إلى الوصول إليه، مضافا إليه البحـث عـن الـذات وعـن الهداية، ثم عن حب الله ورضاه، في أبيات بيّنت أساس الصلة بين العبد وربه، وعرّفت بالله الذي ينبغـي أن يفرد بالعبادة دون سواه، وأن تسلم إليه الوجوه وتعنوا، بإخلاص العمل له وحـده، فـذكرت صـفاته العليا ونزهتها، وأبرزت أسماءه الحسنى وأثبتتها، ونطقت بآيات قدرتـه في الأنفـس والآفـاق، وتحـدثت عن رحمته وجبروته في مشاهد حية تدرك بالأسماع والأبصار والقلـوب والعقـول؛ لأنهـا خاطبـت كـل حاسة في الإنسان، وكلّ جارحة في كيانه البشـري ليتجـه إلى ربـه، فيتفكـر في صـنع الله ويتـدبر في آياتـه وعظمة صاحبها.

والحق أن هذه الأبيات مارست وظائفها «من خلال عمليات إعلامية بحتة تشمل جميع صور الاتصال». [29] وقد تمثل هذا واضحا في هذه الأبيات التي نظمتها ريحانة وقد قالت فيها:

بوجهك لا تعذبني فإني * أؤمل أن أفوز بخير دار**

منجدة مزخرفة العلالي * بها المأوى ونعم هي القرار**

وأنت مجاور الأبرار فيها * ولولا أنت ما طاب المزار**

وقالت:

أَنْتَ أُنسِي وَمُنْيَتِي وَسُرُورِي * قَدْ أَبَى الْقَلْبُ أَنْ يُحِبَّ سِوَاكَا**

يَا عَزِيزِي وَمُنْيَتِي وَاشْتِيَاقِي * طَالَ شَوْقِي مَتَى يَكُونُ لِقَاكَا**

لَيْسَ سُؤْلِي مِنَ الْجِنَانِ نَعِيمٌ * غَيْرَ أَنِّي أُرِيدُهَا لأَرَاكَا**

إنه في أبيات متأججة العواطف وبنفوس سوية لا ترضى عن الإحسان والإنابة بديلا، وفي تصوير عميق بارع ألقيت هذه العبارات المتدفقة تذللا ورجاء واستعطافا في حضرة الله تبارك وتعالى بأسلم السبل وألطفها في هدوء وسكينة، فوجدت في القلب وقعا جميلا، وفي الحس سريانا حسنا، وفي العقول طربا مستفزا، وفي اليقين سبقا وتحقيقا، وفي الفكرة معرفة وعزة، وعليه يتكثف تأثيرها وينتشر، فتستولي الأريحية على النفس تطيبا وتنشيطا.

إذا احتل لفظ الاتصال مكانه في الشعر الصوفي، بوصفه خطاب تواصل، في حركية متجددة، زادته جمالا بممارسته وفق تعابير الوجه، وهيئات الجسم، والحركات، ونبرة الصوت، والكلمات. [30]، أي إنشاء علاقة كلامية راقية تدل على حضارة ورقي مع أطراف التواصل، فيحدث تبادل كلامي بين متكلم يصنع قولا موجها نحو متكلم آخر وبين مخاطَب يلتمس السماع و/أو جوابا صريحا أو ضمنيا وفقا لنمط القول. وإن كان الغالب الأعم من شعرهن أن يرد في أبيات قليلة تصف حالاً من العشق أو الشوق أو الأنس أو التتيم أو المحبة أو المكابدة في الحب أو التفاني من غير إسهاب ولا تفصيل. ولكنهن كثيرا ما تسبحن في الخيال الأخاذ الذي جعل شعرهن يتمتع بخصوصيتي التجلي النوراني والرقي الروحي وقد أردفن إليهما جملة من الجماليات الفنية حيث تفردن ببراعة التصوير وسلاسة الكلمات ورشاقة العبارات في ظل حضور الطبع، والعفوية والانسيابية والإيقاع الموسيقي والوقع الخلاب على أوتار السمع والقلب والفؤاد، ما أكد من دون مشاحة مقدرتهن على الإفصاح عن سرائرهن وقناعاتهن وميولاتهن بلسان مبين؛ لهذا حث صلى الله عليه وسلم على التأنق في الكلام؛ لأنّه كان يدرك أنّ وقع اللسان المبين أشد، فقال: «وإنّ من البيان لسحرا». [31] وقد كان الجاحظ على وعي بأنّ الوظيفة الأساسية والأولى للغة تكمن في الاتصال والتواصل، والإعراب عمّا في الصدور، فقد صاغ للبيان مفهوما إجرائيا، أكّد من خلاله أنّه الأداة الفاعلة التي توصل إلى الفهم والإفهام، فقال: «والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان الدليل؛ لأنّ مدار الأمر والغاية التي

إليها يجري القائل والسامع، إنّما هو الفهم والإفهام، فبأيّ شيء بلغت الأفهام وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان»، [32] فهذا النص يكشف عن رؤية شمولية تضع الاتصال مرادفا للبيان الذي اختزل في «الفهم والإفهام في بعديه: المعرفي والإقناعي (الاستمالة والاحتجاج)، ثم ربطت الأداة بالموضوع والمناسبة؛ أي بالمقام الخطابي». [33] والحق أنّ هذا الفهم للاتصال (الفهم والإفهام) لا يخرج عن كونه قانونا يضبط المعايير التي يتمّ الاتصال بفضلها، تحقيقا لسلوك كلامي يهدف إلى إيصال كلام فني ناجع على المستويين الإخباري والتأثيري في العقل والمشاعر معا بحسب مقتضى الحال؛ أي أشكال الاستجابة للكلام.

إن في الاتصال بالله الاتصال المطلوب، المفتاح الذي يجعل من الكلام المشكّل من نفيس عبارات الخضوع والخنوع المدخل الرئيس للوصول إلى منتهى الصفاء القلبي والروحي مع الله ـ سبحانه وتعالى ـ بناء على أنّ هذا النوع من الشعر من أقوى دواعي التعلق بحبل الله المتين والإذعان لأوامره حبا وخوفا وطمعا ورجاء، وتأليف القلوب، وجذب النفوس إلى تقبّل حقائق الإيمان والتجاوب معها، من خلال عرض الحقائق المتصلة بالذات الإلهية عرضا فنيا مشبعا بالجو العاطفي المناسب لها، فتجد مسارها إلى القلوب والعقول، وتشق طريقها إلى البصيرة والوجدان، فهو أسلوب فني من أساليب فن القول، يوقظ الكيان الإنساني، فيتلقى النص في نشوة غامرة ورضا واطمئنان. [34] إنّه الطريق الأمثل الذي يقع به الإيصال والاتصال ويتحدد التواصل. في محاولة منهن «استمالة الناس نحو هدف معين، وإقناعهم به إقناعا تطمئن إليه قلوبهم، وترضى عنه عقولهم، وتنشرح له صدورهم ويخالط وجدانهم، ويسري في مشاعرهم، ويمتزج بكيانهم، ويصبح إيمانا راسخا كي يتهيأ لهذا الإيمان أن يكون محركا لكلّ ما يصدر عنهم من فكر وعاطفة وسلوك، به يؤمنون، وبتوجيهه يعملون، وفي سبيله يبذلون، وعنه ينافحون، ومن أجله يستشهدون». [35] وهكذا يستشري الإيمان من القلب إلى الجوارح كلها.

ولما كانت المناجاة هي حسن الطلب، والتلطف فيه من الشاعرات المتصوفات حتى يتوجهن إلى الله، ويعتمدن عليه، ويطلبن حبه ورحمته وهداه ورضاه والنظر إلى وجهه الكريم مع ملازمته، تحولت مطالبهن إلى جوهر وجودهن في كلّ مكان وفي كلّ زمان، وبهذا تتحقق العملية الاتصالية التي هي «فعل يقوم على نقل المعلومات من مصدر إلى هدف». [36]

فمفهوم الاتصال هنا مفهوم أكبر من أن يقال عنه إيصال مكنون إلى الناس فحسب، إنّه يقتضي عرضا حسنا لهذه المكنونات الوجدانية؛ التي عرضت في درجة عالية من النضج الفني والإجادة، لتعلم أطرافا كثيرة أن الإيصال الجيد يسهم بشكل مباشر في رسم معالم الحوار الحضاري الراقي.

هوامش البحث:

---

[1] – نعمان بوقرة: نحو نظرية لسانية عربية للأفعال الكلامية ـ قراءة استكشافية للتفكير التداولي في المدونة اللسانية التراثية، مجلّة اللغة والأدب، جامعة الجزائر، ع 17، 2006، ـ ص 175

[2] – طه عبد الرحمن: اللسان والميزان ـ أو التكوثر العقلي ـ المركز الثقافي العربي ـ الدار البيضاء ـ بيروت الطبعة الأولى 1998 ص 29

[3] – Josette Ray – Debove et Alain Rey : Le petit Robert de la langue française 1982 p 135

[4] – عمر مهيبل: الخطاب الفلسفي للحداثة يورغن هابرماس ـ مجلة اللغة والأدب ـ جامعة الجزائر ـ قسم اللغة العربية وآدابها ـ العدد العاشر ديسمبر 1996 ص 44

[5] – علم الدين السخاوي (أبو الحسن علي بن محمد): جمال القراء وكمال الإقراء، تحق/ عبد الكريم الزبيدي، دار البلاغة ـ بيروت ـ ط 1 ـ 1993 ج 1 ص 270

[6] – كل الأبيات الشعرية هي عبارة عن شتات تم جمعه من مختلف الكتب والموسوعات مثل:

عبد الحكيم الوائلي: موسوعة شاعرات العرب من الجاهلية حتى نهاية القرن العشرين، دار أسامة ـ عمان ـ الأردن، ط 1 _ 2001

معجم شعراء الحب الإلهي محمد أحمد درنيقة ـ دار الهلال بيروت لبنان ط 1_ 2000

[7] – أحمد الحلواني: الإيمان والروح ـ القاهرة ط 1، 1947 ص 28

[8] – زكي مبارك: التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، المكتبة العصرية بيروت لبنان (د.ت) ج 1 ص 23

[9] – أبو القاسم القشيري: الرسالة القشيرية، تحق/ عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف مطابع مؤسسة دار الشعب، القاهرة، ج 2 ص 442

[10] – حسن مصدق: النظرية النقدية التواصلية، المركز الثقافي العربي، ط1، 2005 ص 126

[11] – عبد الرحمن بدوي: رابعة العدوية ، الكويت 1978 ص ص 117 ـ 118

[12] _ عبد الحكيم الوائلي: موسوعة شاعرات العرب من الجاهلية حتى نهاية القرن العشرين، دار أسامة ـ عمان ـ الأردن، ط 1 _ 2001 ج1 ص ص 198 _ 199

[13] – Mikhaïl Bakhtine : Le principe Dialogique; ed Seuil p 68 نقلا عن أنور المرتجي: سيميائية النص الأدبي، أفريقيا الشرق الدار البيضاء المغرب 1987 ص 106

[14] _ المرجع نفسه ص 199

[15] – محمد علي الجوزو: مفهوم العقل والقلب في القرآن والسنة ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ط 1، 1980 ص 203

[16] – الجرجاني (أبو الحسن علي): التعريفات، وضع حواشيه وفهارسه محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية ـ بيروت ط 2 ـ 2003 ص 50

[17] – الأبيات لتحفة وقد وردت في كتاب معجم شعراء الحب الإلهي محمد أحمد درنيقة ـ دار الهلال بيروت لبنان ط 1_ 2000 ص ص 93 _ 94

[18] – الأبيات لعائشة الباعونية المرجع نفسه ص 190

[19] – الأبيات لرابعة بنت سليمان الشامية وقد وردت في موسوعة شاعرات العرب من الجاهلية حتى نهاية القرن العشرين ص 199

[20] – ابن قيم الجوزية أبو عبد الله محمد بن أبي بكر: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، دار الكتاب العربي سنة النشر 1416 / 1996 ص

[21] – ينظر محمد علي الجوزو: مفهوم العقل والقلب في القرآن والسنة ص 210

[22] – ينظر الجرجاني (أبو الحسن علي): التعريفات ص 36

[23] – حسن مصدق: النظرية النقدية التواصلية ص 121

[24] – للاستزادة ينظر حسن مصدق: النظرية النقدية التواصلية ص ص 119 ـ 120

[25] – عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، تحق/ محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي ـ مطبعة المدني – القاهرة ط 3 ، 1992 ص 462

[26] – نور الدين الملاخ: "مفاهيم في التواصل" تاريخ النشر 02 / 02 / 2005 http://www.aljamaa.com/ar/index.asp

* تُثْبَتُ

[27] – ينظر الجاحظ: رسائل الجاحظ، تحق/ عبد السلام محمد هارون ـ دار الجيل ـ بيروت 1991 ج 3 ص 41

[28] – السكاكي: مفتاح العلوم، ضبط وتعليق/ نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ط2، 1987 ص 258

[29] – إحسان عسكر: وظائف التبليغ القرآني، ط1 ، 1992 ص27

[30] – Cooley, Charle:Human Nature and the Social Order.New york 1969, in Mucchielli, R:Nouvelles méthodes d'étude des communications ,Armand colin, Paris (2) 1988 نقلا عن جميل حمداوي: مفهوم التواصل ـ النماذج والمنظورات ـ ديوان العرب العدد 31 ديسمبر 2006 http://www.diwanalarab.com/

[31] – البخاري (أبو عبد الله محمد بن إسماعيل): صحيح البخاري ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ بيروت ط 1، 2002 ـ ص 1460

[32] – الجاحظ: البيان والتبيين، تحق/ محمد عبد السلام هارون، دار المعارف مصر ج 1 ص 8

[33] – محمد العمري: البلاغة العربية ـ أصولها وامتدادها ـ أفريقيا الشرق الدار البيضاء المغرب / بيروت لبنان 1999 ص 201

[34] – إحسان عسكر: وظائف التبليغ القرآني ص 186

[35] – عبد الغني محمد سعد بركة: أسلوب الدعوة القرآنية بلاغة و منهاجا، دار غريب ـ القاهرة ـ مصر ط 1، 1983 ص 14

[36] – نور الدين الملاخ: "مفاهيم في التواصل" تاريخ النشر02 / 02 / 2005، ص 3 http://www.aljamaa.com/ar/index.asp